الحزب وتوقف نشاطه.

وفي تحديده لدور الحزب في الحركة الوطنية الفلسطينية خاصة والقومية العربية عموما، مهّد المؤلف لتاريخ الحزب بخلفية تاريخية لمجمل النضال القومي العربي قبل الانتداب البريطاني، اذ ساهمت هذه المرحلة في بلورة فكرة حزب الاستقلال، خاصة وان اعضاء الحزب، في معظمهم، كانوا من رجال جمعية «العربية الفتاة»، وحزب الاستقلال العربي في دمشق، ابان العهد الفيصلي. وسعى الكاتب، في هذا المدخل، للوصول من العام العربي الى الخاص الفلسطيني، في تأريخ الحركة القومية العربية لتلك الفترة، حيث تمثل الخاص الفلسطيني، لاحقا، بتأسيس حزب الاستقلال العربي، الذي هو موضوع هذه الدراسة. ويرجع الكاتب بداية تكوينات هذا الحزب، الى الفترة التي تم فيها تقسيم المشرق العربي، الى مناطق نفوذ فرنسية ـ انكليزية، بموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو، فضلا عن اشكالية التداخل الصهيوني مع هذه الهيمنة الاجنبية في فلسطين. ولتحديد ملامح شخصية حزب الاستقلال، بوضوح اكثر، تطرق الكاتب الى مجمل الجسم السياسي للحركة الفلسطينية، بما فيها اللجنة التنفيذية والجمعيات الاسلامية المسيحية والمؤتمرات الفلسطينية العامة، وذلك بهدف اعطاء القارىء صورة تفصيلية للظرف التاريخي السياسي، الذي احاط بولادة حزب الاستقلال. اما في الفصلين الثاني والثالث، فقد تناول الكاتب البناء الداخلي للحزب، من خلال قانونه وادبياته المختلفة وتركيبته القيادية. ومن ثم، تناول بالشرح والتفصيل تعبيراته السياسية والايديولوجية، باستطلاع نشاطاته وكتابات قادته في مجلة «العرب»، وغيرها، وعلاقاته الفلسطينية والعربية التي اقتصرت، الى حد كبير، على بؤر، او تكونات ذات طابع قومي في بلدان عربية اخرى. وقد توصل الكاتب الى عدة استنتاجات نلخصها في التالي:

اولا ـ تميز حزب الاستقلال بكونه تأسس على قاعدة قومية ـ وطنية لا عائلية ـ عشائرية، بحيث ابتعد عن السياسات الشخصية والعائلية، واضعا المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار (ص ٤٧). والكاتب في تبيانه لهذه الميزة في حزب الاستقلال، عرج على الظواهر المَرَضِية التي ابتلي بها الجسم الوطني الفلسطيني انذاك، كظاهرتي الشرذمة والانشقاق. غير أن الاستقلاليين، وجلهم من المثقفين المستنيرين، رفضوا جر السياسة للصراعات العائلية، وبهذا تميزوا عن القادة التقليديين.

ثانيا ـ ميزة اخرى لحزب الاستقلال تجلت في جرأته على انتقاد الزعماء التقليديين (انظر ص ٤٥، شروط الحزب للتنسيق مع الحاج امين). كما تجلت هذه الجرأة في انتقاد الحزب لكل من المجلسيين والمعارضة، على حد سواء؛ حيث لم يستثن ايا منهم من صفات العشائرية والتقصير والمصلحة الفردية، مع فتور الروح النضالية (ص ٤٧).

ثالثا ـ بين الكاتب في استنتاجاته، ايضا، بعض المآخذ على الحزب، كمحدودية قاعدته التنظيمية (ص ٥٠، ٦٠، ٦١؛ ٩٤ وغيرها)، واقتصاره على المثقفين، بحيث غلب عليه طابع التنظيم النخبوي، فظل دوره مقتصرا على تحريك الجماهير لا قيادتها، في اطار من الاساليب والممارسات السياسية نفسها التي يتبعها التقليديون، رغم تميز الحزب عنهم، كما سبق واشرنا، بمنطلقاته الفكرية والسياسية.

لكن الكاتب، في تناوله لهذه الجوانب الهامة، الملخصة اعلاه، من حياة الحزب الداخلية والسياسية، لا يسمي الاشياء بمسمياتها الحقيقية، بل يترك حيزا واسعا لتأويلات القارىء وتفسيراته، وليس في هذا غضاضة، لو ان الكاتب ارفق ذلك بتحليل وبرؤية متكاملة لظاهرة حزب الاستقلال في التاريخ الفلسطيني، بمعنى ان ملاحظتنا الاساسية على هذا البحث، باعتباره بحثا وصفيا امينا وحذرا الى حد الابتعاد عن «مغامرة» ابداء الرأي، تبقى هي المنطلق في المآخذ على هذا الكتاب. ولعل الكاتب في حذره الشديد هذا، فصل كثيرا بين الموضوعية وابداء الرأي. فالمؤلف في سعيه غير الديناميكي وراء الموضوعية، ابتعد عنها؛ اذ لِمَ الخوف من ان يفقد البحث موضوعيته، ما دام الكاتب يستند الى وقائع واراء عايشت التجربة، فضلا عن انها موثقة تاريخيا، بمراجع معروفة وعديدة؟... قد يجتهد المرء، ويخطىء الاجتهاد، لكن يبقى السعي وراء الموضوعية واضح المعالم، اذا اتسم السياق العام للبحث بالدقة والتجرد في سرد الوقائع والمعلومات.